الاتحاد العربي للمدارس الخاصة
Arab Private Schools Federation

الحجُّ مدرسةٌ ربانيةٌ تربوية

نحو تعليمٍ يُخرِّج "حُجّاجًا" في ميدان الحياة

360 KNO SMART SCHOOLING
ADVANCE THROUGH TECHNOLOGY

unicef

UNESCO
United Nations Educational, Scientific and Cultural Organization

GenEx
Generational Education Exchange

تمكين
TAMKEEN

UNIVERSITY OF VICTORIA
LONDON - UK

AMIEF

د. خميس بن عبيد العجمي

رئيس الاتحاد العربي للمدارس الخاصة

رئيس مجلس أمناء مدارس كينو الخاصة بسلطنة عمان

من وحي أصداء عبارات " لبيك اللهم لبيك"، ومن أجواء مشحونة بالابتهالات والروحانيّات، من أطهر بقعة على وجه الأرض، تتجلّى لحظات تأمل في مشهد يخطف الألباب، ليسجّل بحضوره حقيقة مفادها "الملك للّٰه الواحد القهّار" الذي اجتمع الناس حول بيته الحرام، من أرجاء العالم قاطبة تسليماً وإيماناً وإذعاناً، في رحلة روحيّة ومعرفيّة يحياه المسلم في أسمى تجليّاته الإنسانيّة، رحلة روحه وعقله وجسده. رحلة الحجّ، هذه الرحلة الروحية والمعرفية التي تقدّم نموذجاً حياتيّاً فريداً يشمل الروح والجسد والفكر، ومن هذا الفكر يمكن استلهام ما فيه نفع لإعادة صياغة التعليم المعاصر،فمن رحم كون الحج شعائر جسدية في ظاهره، وصولاً لعمقه بكونه منظومة متكاملة تُحاكي رحلة الإنسان نحو المعنى وحقيقة وجوده، فتُقدم بذلك نموذجاً تربوياً يتجاوز ثنائية العقل والروح، يستنطق أبعاد الحجّ ودلالاته في حياتنا كمسلمين، ويربط هذه الدلالات مع فلسفة التربية والتعليم، ويترسّم نموذجاً تعليميّاً يحاكي رحلة الحج في تحويلها للإنسان، ويحقّق التّوازن بين التزكية والمعرفة، فتظهر هنا حاجة لمعرفة كيفيّة تحويل التعليمْ ليصبح مدرسةً تُخرِّج أفراداً يحملون روح الحاجّ في التزامهم وأخلاقهم وسعيهم الدائم نحو الأفضل.

فالحجّ، في جوهره الفلسفي، هو رحلة يقوم بها المسلم تاركاً وراءه متاع الدنيا الزائل وعالمه الرتيب من بيت وعمل وحياة يوميّة، متجهاً نحو الحقيقة المطلقة في بيت اللّٰه الحرام، في تجسيد فريد بكون هذا الإنسان بمحدوديّة تفكيره وقدراته، قد ارتحل في طريق للّٰه الواحد الأحد اللامحدود القدرات، تضرعاً وخشيةً وطمعاً ورجاءً في عفو ومغفرة ورزق وبركة.

فهو رحلةٌ تعليميةٌ إيمانية تُعيد صياغة وعي الإنسان عبر اختبارات عملية في التوحيد، والتضحية، والوحدة، وهذه الفلسفة تصلح لأنْ تكون نواةً لـنموذج تعليميّ يُحوِّل الفصول الدراسية إلى مساحاتٍ لـتزكية النفس وبناء الشخصية، ويمكن من خلاله استلهام آثار تغدو أساسات لبناء هذا النموذج التعليميّ المنشود.

ARAB-PSF.COM

فتكمن الآثار التعليميّة فيما يمكن تعلّمه من هذه الشعيرة الروحانيّة التي تظهر ثنائية " محدوديّة قدرات الإنسان، بلامحدوديّة قدرات اللّٰه)، وإسقاطها على المنظومات التعليمية، إذ إنّه من خلال فهم الحقيقة الفلسفية للحج، يمكن فهم أنّ التعليم الحقيقي المنشود هو ذلك الذي يعي هذه الثنائية، فيتمّ السعي لإيجاد تعليم ينطلق بالفكر من حدود محدودة ماديّة إلى منظومة لا محدودة تتجاوز حدود جهل المتعلمين وتربأ بهم بالمعرفة لتصل بهم إلى الابتكار والإبداع والخيال الخلاّق، فهو تعليم يرفض التعليم البنكي وتراكم المعلومات ليصل لعمق توسيع حدود الوعي والإدراك، تماماً كحال الحجّ الذي لا يرتبط بتأدية لمناسك وحسب، بل بتوسيع حدود التجربة الروحية، فإنْ كان التّعلّم الحقيقيّ هو أنْ يصبح الإنسان ما هو عليه، فالحجّ رحلة ليصبح الإنسان ما هو عليه بالتسليم للّٰه تعالى والتضرّع له.

فيظهر الأثر الأوّل من خلال الإحرام، بوصفه حالة من التجرد من الزينة والمظاهر، وهنا نموذج عميق يُستلهَم للتعليم كمنظومة إنسانيّة تشترط لحدوثها تجرّد المتعلّم معرفيّاً كشرط لحدوث التّعليم، فيتمّ كسر الإطارات المسبقة والأحكام المسبقة، تماماً كما يتجرّد الحاج من لباسه المألوف، ووجب على المتعلّم أن يكتشف جهله أمام نفسه، تماماً كإحرام الإنسان فهو في حالة من مواجهة الذات وكشفها، ويْ كأنّ الإنسان سيتعلّم في الحج والرحلة العلم ، حقيقة مفادها: (ماذا أملك من علم، وأنا لا أزال أتعلم ما لا أعلم).

كما يكمن في هذه الشعيرة أساس التربية على النية الخالصة ونقاء القلب، لكون النيّة أساس التعلُّم، فالتعلّم من أجل الشهادة، يعادل الحج من أجل الصورة، بينما التعلم من أجل الفهم، كالحج من أجل القربى، ولباس الإحرام الذي ينفي قيمة الملابس الفارهة، يعادل وجود مناهج تُنقي العقل من التعصُّب والأفكار الضيقة، فالتعليم يستمدّ من الإحرام فكرة ضرورة وجود مساحة لتعرية الأفكار من أيّ غلاف معرفيّ قد يكون مضللاً أو سطحياً.

والأثر الثاني في ركن الطواف حول الكعبة، الذي يعكس تدريباً على التعلُّم الحَواري الذي يُعيد الطّالب إلى مركز المعنى، فالطواف حول الكعبة كالمنهج المتكامل الذي يُعيد كل العلوم إلى أصلها الإيمانيّ، فتدريس الرياضيات وجب أنْ يتمّ بربطها بـإعجاز الخلق، كالنسب الذهبية في الطبيعة، وتعليم العلوم تدرّس من منظور التفكُّر في السماء والأرض، وتدريس اللغة العربيّة تدرّس بكونها جسراً لفهم القرآن.

ARAB-PSF.COM

والأثر الثالث هو ما يرتبط برمزية السعي بين الصفا والمروة، إذ تجسّد هذه الشعيرة حركة الانتقال المستمر بين أقطاب الحياة بحثاً عن الاكتمال، وهذه الشعيرة تسقط على التعليم من خلال بعدين: الأوّل؛ كون التعليم حركة من من الصفا (الصفاء الذهني) إلى المروة (المرونة الفكريّة)، من (الفهم النظري) إلى(التطبيق العمليّ)، وخلال هذا السعي المعرفيّ، فإنّ كلّ مستوى معرفي ينفي ما قبله ويتجاوزه، تماماً كما ينتقل الحاجّ من نقطة إلى أخرى، والثانيّ، تذكير السّعي للمتعلّم بأنّ رحلة التعلّم تحتاج إلى مثابرة وتفاؤل ، ففي كلّ خطوة اقتراب من الهدف، حتى لو بدا بعيداً، وفيه إملاك للفرد في رحلة علمه لمهارات حيويّة كحلّ المشكلات، وبعد النظر الإيجابيّ.

والأثر الرابع يتجلّى في وقفة عرفة، تلك اللحظة المحورية في الحج، التي تمثّل ذروة الوعي بالذات وبالآخر وبالعالم، ففيها معرفة الذات، إذ يقف الحاج معترفاً بذنوبه، كما يقف المتعلم مدركاً لحدود معرفته، ومعرفة الآخر، فالوقوف مع الجميع يعلّم أنّ المعرفة مشروع جماعيّ لا فردي، ومعرفة المطلق، فمن الوقوف في عرفة يتجلّى اعتراف بأنّ المعرفة النهائيّة تتجاوز الإدراك البشريّ، وفي هذه المعارف الثلاث، إسقاط لأسئلة العلم والتعلّم الثلاثة: ماذا يمكنني أنْ أعرف؟ ماذا يجب علي أن أفعل؟ ماذا يمكنني أن آمل؟

وفي وقفة عرفة اختبارٌ للمسؤولية والتفكير النقدي وانعكاس على نظم التعليم المنشودة، إذ يقف الحجاج كـكيان واحد متساوون بلا تمييز، ومن هذه الوقفة يستلهم التعليم مبدأ العدالة، ويحفّز التفكير الجماعيّ، ويربط العلم بالضّمير.

والأثر الخامس يظهر من رمي الجمرات، شعيرة تقدّم نموذجاً عميقاً للتخلص من العوائق التي تحول دون المعرفة الحقيقية من جهة، ففيها تخلص من النظرة الذاتية التي تشوه المعرفة، وتخلص من الاعتقاد بامتلاك الحقيقة المطلقة، وتخلّص من اختزال المعرفة في منفعتها المادية وحسب، فهنا مرحلة رمي وابتعاد وجب على المتعلّم القيام به بتخلّصه من الأفكار المسبقة ليتمكّن من إنتاج معرفة جديدة، ومن جهة أخرى فإنّ رمي الجمرات رمز لمحاربة الأهواء، وفي التعليم، هذا يعني محاربة شيطان الكسل بوجود أنشطة تُنمي الانضباط الذاتي، ومواجهة شيطان الغش بترسيخ مبدأ الصدق وعدم الغشّ، والتخلص من شيطان العُجب بتعليم الطلبة أنّ العلم سبيل لخدمة الآخرين، لا للتفاخر.

ARAB-PSF.COM

والأثر السّادس يظهر في شعيرة الذبح والتضحية في الحج، وهي شعيرة تمثّل بعداً أخلاقياًّ عميقاً يمكن استلهامه في فلسفة العلم والتعليم من خلال وجوب تضحية المتعلّم بالتمسّك بالرأي الشخصيّ أمام الحقيقة العلميّة، والتضحية بالوقت والجهد لطلب المعرفة العميقة ، والتضحية بالمنفعة المباشرة في سبيل الوصول لآفاق علميّة أصيلة قد تظهر نتاجاتها على المدى البعيد، فهنا تتجلّى أخلاقيّات المعرفة، إذ لا تنفصل المعرفة عن القيمة، والعلم عن الغاية الإنسانية السامية.

وبعد، فمن منظور كليّ مستلهم من دورة الحج الكاملة، يمكن تصوّر نموذج تعليميّ قائم على فهم الجزء في ضوء الكل، والكل في ضوء الجزء، فيكون في هذا النموذج تكامل معرفيّ، فكما تتكامل مناسك الحج، تتكامل المواد الدراسية، وتكامل مساريّ، بعودة التعليم للمفاهيم بمستويات وأبعاد عميقة من الفهم والتفكير، وتكامل تزامنيّ، بحيث يتمّ تدريس المفاهيم المترابطة في وقت واحد، كتزامن مناسك الحج، ومن جوهر هذا المنهج يحدث تجاوز للرؤية الخطية للتعليم من خلال المستويات المتتالية، نحو رؤية تعمل على تداخل المستويات، تماماً كما يتجاوز الحجّ الزمن الخطّي نحو زمن دائري مقدس.

فإنْ كان الحج، في جوهره، رحلة تحول وجوديّ للإنسان، ليعود الحاجّ "كيوم ولدته أمه"، في إشارة إلى ولادة جديدة، فإنّ هذا التحوّل هو الغاية القصوى للتّعليم الحقيقيّ الذي يسعى للتغيير في الرؤية للعالم، كما يغيّر الحجّ نظرة الحاج للحياة، والتّغيير في العلاقة مع الذات باكتشاف أبعاد جديدة لها، والتّغيير في العلاقة مع الآخر من خلال إدراك الترابط الإنساني العميق، فهنا يتجاوز التعليم نقل المعلومات إلى تغيير حدود المعنى لما تعلّمه المتعلّم.

وهنا وقفة أخيرة ،

ففي عالم مأزوم بثنائيات حادة (علم/دين، عقل/قلب، مادة/روح)، يقدّم نموذج الحج التربويّ رؤية تكامليّة تتجاوز هذه الثنائيات، فيغدو التعليم كالحج، رحلة متكاملة تسعى لتحقيق التوازن بين المعرفة والقيمة، فالعلم بلا قيمة كجسد بلا روح، وبين الفردية والجماعية، فالتعلم مسار شخصي ضمن سياق جماعي، وبين النظرية والتطبيق، فالوقوف في عرفة (تأمل) والسعي (حركة).

ARAB-PSF.COM

وما استلهام نموذج تعليمي من الحج إلاّ محاولة لاستشراف مستقبل تتصالح فيه المعرفة مع القيمة، والعلم مع الإيمان، والتقنية مع الإنسانية، فكما يعود الحاج محمَّلاً بالهمة والعزيمة، يعود المتعلّم من رحلته المعرفية محمَّلاً بالمسؤولية تجاه ذاته ومجتمعه، فالتعلّم الحقيقي، كالحجّ الحقيقي، ليس نهاية رحلة، بل بداية رحلة جديدة نحو عالم أفضل.

فما أحوجنا إلى وجود معلّمين يتدرّبون على دمج القيم الإيمانيّة في الشّرح دون وعظ، ومناهج تفاعليّة لا وعظية، وتقييمات قوامها مؤشرات سلوكيّة لا درجات وحسب، حتّى يصبح التعلّيم كالحج، رحلة معرفيّة وروحيّة في آن واحد، تعيد للإنسان توازنه المفقود بين عقله وقلبه، بين علمه وإيمانه، بين وجوده الفرديّ ووجوده الجماعيّ، فإذا كان الحجّ يُطهِّر الروح، فالتعليم الإيمانيّ يجب أن يُطهِّر العقل والقلب معاً، ولن تكون المدرسةُ فاعلةً إلا إذا نجحت في صناعة طالب يعبد اللّٰه بالعلم، ويُصلح الأرض بالمعرفة.

ونتاج ذلك سيكون جيل يتذكّر دائماً أنّ رحلة التعلُّم كالحج تبدأ بـ "لبيك" وتنتهي بـ "تقبّل اللّٰه"، وبين هذه وتلك أيام معدودات، وعشر مباركة، لا مجرّد أيام تمرّ في التقويم، بل فرصة ذهبية نادرة لغفران الذنوب ورفع الدرجات وتطهير القلوب، وموسم الرحمة الإلهية التي تتدفّق على عباد اللّٰه المؤمنين.

ففي العشر من ذي الحجة طيّات من نسائم الجنة وأنوار المغفرة، فهي أيام في زمن لا يعوّض، تتضاعف فيها الحسنات وتُمحى السيئات، وتُفتح أبواب السماء لدعوات المشتاقين والتائبين، وفيها يجد المؤمن نفسه أمام موائد روحانيّة متنوّعة، كلّ منها تطهير للقلب وتزكية للنفس وتقريب للعبد من ربه، ففيها الصيام الذي يُربّي النفس على الصبر والتقوى، ويحمل جوهر التطهر والتجديد، فتصفو الروح وتشرق، وفيها التكبير والتهليل والتحميد الذي يملأ الفضاء بذكر اللّٰه، فتهتز له القلوب وتطمئن به الأرواح، وفيها الذكر والدعاء اللذان يُقرّبان العبد من ربه، وخاصة في يوم عرفة المبارك، إذ تُستجاب الدعوات وتتنزل الرحمات، فهو وقت المناجاة الصادقة والتضرّع الخاشع، إذ تنكسر النفس بين يدي خالقها، وتستغفر من ذنوبها وتطلب مغفرته، وفيها الأضحية لمن استطاع إليها سبيلاً، فهي تعلّمنا معنى البذل والعطاء في سبيل اللّٰه، وفيها التوبة النصوح والإكثار من الأعمال الصالحة التي تُطهّر القلب من ران المعاصي وتُنير دروب الهداية، للعودة الصادقة إلى اللّٰه، والانطلاق من جديد في رحلة الإيمان بقلب طاهر ونفس مطمئنة.

ARAB-PSF.COM

اللهم بلغنا العشر من ذي الحجة، واجعلنا من عتقائك من النار، وتقبّل منا صالح الأعمال، واغفر لنا ذنوبنا، وارحم ضعفنا، وأصلح أحوالنا، إنك سميع مجيب الدعاء.